

## الفكاكة في شعر عبد الحميد الديب

عبد الحميد الديب (١٨٩٨-١٩٤٣ م) الذي لقب حياً وميتاً بشاعر البؤس هو واحد من أشهر الشعراء الصعاليك في القرن العشرين ، إذا أخذنا الصلعة بمفهومها الحديث وهو : يعني التشرذم وعدم الاستقرار النفسي والاجتماعي ، وضنك العيش ، والتصادم المستمر مع الحياة والأحياء .

أما المفهوم القديم للصلعة الذي يعني قطع الطريق واغتتيال ثروات الأغنياء لتوزيعها على المحتاجين كما كان يفعل الشعراء الصعاليك الأقدمون مثل عروة وتأبط شراً وغيرهم فلم يعد لها وجود .

على أن صلعة عبد الحميد الديب وتشرده وحياته النكدية التي عاشها لا تعود إلى سبب واحد ، بل إلى سببين ، أولهما تلك النشأة الاجتماعية الخشنة التي جُوبه بها في طفولته ، فقد كان أبوه جزاراً قروياً فقيراً يعول أسرة كبيرة ، فلم يظفر شاعرنا بشيء من الاهتمام ولا ذاق طعم النعيم الذي كان يراه في حياة أثرياء قريته ( كمشيش بالمنوفية ) فهذا سبب خارج عن إرادته ، لأنه نشأ مرغماً في هذه الأسرة الفقيرة التي لا بد له في اختيارها ، وإنما هي قدره الذي شاء له الله تعالى أن ينشأ فيه.

أما السبب الثاني لصلعته فهو متعلق به هو ، فقد كان أبوه على الرغم من ضيق يده ، حريصاً على تعليم ابنه فلما أتم صاحبنا حفظ القرآن وتجويده في سن مبكرة أرسله - على عادة أهل الريف في ذلك الزمان - إلى المعهد الديني بالإسكندرية

حيث نال منه شهادته المتوسطة ثم أرسله أبوه إلى القاهرة بعد ذلك عام ١٩٢٠م ليستأنف تعليمه العالي في الأزهر، وهنا بدأ انحراف عبد الحميد الديب عن الطريق السويّ الذي سلكه نظراؤه من الذين سارت بهم مواكب الحياة سيرتها التقليدية فأتموا تعليمهم والتحقوا بوظائف حكومية كفلت لهم حياة كريمة .

ويبدو أن لنفسية الديب المتمردة، وشخصيته الثائرة، أثراً في تغيير مسار حياته، فقد قضى شطراً من عمره في الأزهر ثم يمّم شطر دارالعلوم التي كانت آنذاك قبلة الأدباء ومحط رحال الشعراء والمبدعين، غير أنه أكبّ على كتب الأدب والتراث في دار الكتب يلتمها التهاماً، وأهمّل دراسته، حتى التقى ذات يوم بالمطرب الشهير سيد درويش الذي أعجب بعبقريّة صاحبنا فأخذه ليعيش معه في قصره الفخم ويشاطره حياته المترفة إلى أقصى حدود الترف .

وعاش صاحبنا مع سيد درويش لاهياً عن كل شيء إلا الفن والحياة الصاخبة، فضيّع دراسته، ومستقبله. ولم يطل به العهد بالنعيم فقد مات سيد درويش فجأة وهو في عنفوان الشباب عام ١٩٢٣م وطُرد صاحبنا من القصر الفخم إلى الشارع فاستأجر لنفسه غرفة حقيرة في حي الحسين الشعبي بالقاهرة وبدأت حياته مع التسكع والكدية والصعلكة على نحو استمر حتى وفاته عام ١٩٤٣م .

وقد يبدو التماس جوانب للفكاهة في حياة كئيبة كهذه الحياة ضرباً من المستحيل، لكنّ ذلك في الحقيقة ليس مستحيلاً إذا استعان الباحث في شعر الديب بشيء من الصبر والأناة، فمثل هذا الشاعر البائس المتمرد لا تخلو روحه من الدعابة والسخرية، بل لعل السخرية من لوازم التمرد والتصعلك وهذا ما نلمسه في شعره

حين تصور لنا حياته البائسة في غرفته تلك الحقيرة التي عاش فيها والتي كانت

تشبه جحراً بل كان يسميها ( جحر الدير ) وفيها يقول :

أفي غرفتي يا رب أم أنا في لحد ؟

لقد كنت أرجو غرفة فأصبتها

فأهدأ أنفاسي يكاد يهدأ

أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها

ألا شدّ ما ألقى من الزمن الوغد

تساكنني فيها الأفاعي جريئة

بناءً قديم العهد أضيق من لحدّي

وأيسر لمس في بنايتها يُردي

فأرجله أمضى من الصارم الهندي

وفي جوها الأمراض تفتك أو تعدي

ثم يصف أثاث هذه الغرفة وصفاً مضحكاً ، فهذا الأثاث ليس في حقيقته

إلا شاعرنا نفسه !!

فهو لا يملك إلا معطفاً يفترشه صيفاً ويتغطى به شتاءً ، ويتخذ لنفسه

وسائد من أوراق الصحف يغطي بها جحراً صلباً حتى يلين قليلاً ليصلح وسادة

وهو في حياته هذه يشبه المهاتما غاندي الذي عزف عن متاع الدنيا الزائل وعاش

زاهداً يقول الدير :

تراني بها كل الأثاث ، فمعطفي

وأما وساداتي بها فجرائد

فراش لنومي أو وقاء من البرد

تعلمت فيها صبر أيوب في الضنى

تجدد إذ تبلى على حجر صلد

وذقت هزال الجوع أكثر من غاندي

وعلى الرغم من هذه الحالة المزرية التي يقدم لنا فيها الشاعر صورة عرفته

القدرة فإنه يحكي لنا عن تلك المعارك الضارية التي تشتعل أول كل شهر بينه وبين

صاحب البيت بسبب أجرة البيت التي كانت ثمانين قرشاً هي بالنسبة لشاعرنا

نكبة النكبات وأزمة الأزمات يقول الديب :

ثمانون قرشاً أهلكني كأنها

طويت لها الدنيا سؤلاً وكُدية

لُعت كِراءَ البيت كم ذا أهنتني

لأجلك إما أن أبيع كرامتي

ففي كل شهر لي عواء بموقف

وطول ليالي الشهر يهتاج مضجعي

يطالبني في غلظة فأجيبه

ألا سكن ملكي ولو بجهنم

ثمانون ذنباً في سجل عذابي

فما ظفرت نفسي برد جواب

وأذلت كبري بين كل رحاب

وإما أفديها ببيع ثيابي

يباعد عني أسرتي وصحابي

مخافة رب البيت يغلق بابي

إجابة من يرجو يدا ويحابي

وأكفي من الأيام شر حسابي

ويصور لنا عبد الحميد الديب كيف كان صاحب البيت يهينه إذا تأخر في دفع كراء الغرفة ، ويعيره بفقره وبأن غرفته خالية من أي أثاثات يمكن الحجر عليها إذا ما شكاه صاحب الدار إلى الشرطة . فلا شيء يملكه الشاعر يمكن احتجازه رهناً مقابل الإيجار الضائع . وهذه المعايير تتكرر أول كل شهر وشاعرنا لا يقف ساكناً ذليلاً ، وإنما يرد الكيل لصاحب الدار فيعيهه بأن بيته حقير لا فرق بينه وبين القبر . وإذا كان في جيبه مال تعمد أن يضع يده في جيبه فيضرب بعضه ببعض فما أن يسمع صاحب الدار رنين النقود حتى تنقلب حاله ، ويخف من غلوائه ويتودد إلى شاعرنا في لطف وحنو فيذكّر بحب اليهود للمال وتكالبهم عليه يقول الديب :

صحوت على قصف الرياح وصوته

يطالبني بالأجر في غيظ دائن

وقال يداري ظلمه : أي ضامن

أراك بها كل الأثاث ولا أرى

فقلت له : هذي جدودي كما ترى

وقلت معاذ الدين ما كنت مرة

وما أحدث الطرق الخليع من الجرس

تصيده المحتال بالثمن البخس

لسكني تعرت عن سرير وعن كرسي؟

سوى قلم تاو على الأرض أو طرس

فما سكني في البيت بل أنا في رسم

غريباً ولا أدللت يومي ولا أمسي

ويغوص الديق في النفس الإنسانية القذرة التي أعمها حب المال فسلبها

الحس المرهف والإنسانية الشاعرة ، فإذا هي أما المال تنقلب من حال الذئب

الضاري إلى حال الحمل الوديع :

وأخضع فقري كبره وثناءه

إذا كانت السكنى بأجر مذلة

فإني أرى فيها الطعام ، ولا أرى

وإن لم أجد فيها الطعام ميسراً

وأي غنى للمرء غير غنى النفس

فما أرحب المجان في غرف الحبس

غريباً ، يلاقيني بعارضة النحس  
فإنني رخي البال ... أأطعم من حسي

وتأبى أقدار الحياة إلا من السخرية من شاعرنا فتسوق إلى غرفته تلك  
المتهالكة لصاً يسرقها ، فلا يجد إلا لحافاً ممزقاً هو كل ما يملك شاعرنا من أسباب  
النعيم ، فيبكي شاعرنا لحافه الوحيد فيقول ساخراً أنه لا يحزن على فقد اللحاف  
بقدر حزنه على هلهلة سمعته فاللحاف في حال لا تسرعوا ولا حبيباً، فهو يخشى  
الفضيحة إذا قيل : هذا لحاف إنسان !! ، ويعتب صاحبنا على اللص الذي يعتبره  
أخاً في المحنة ، وصديق شدة كان حرياً به – والحال كذلك – أن يرأف به ويترك له  
لحافه يقول الديب :

لحافي ، وهل غير الهباء لحافي ؟  
أطاف به لص فقير كعيشتي  
ولم أخش من ذا الرزء إلا فضيحتي  
فليتك يا لصي الجريء وجدتني  
ويا ليتني ما كنت صيدك إنما  
ويا ليتني دون اللحاف ضحية

بقية نسج دارس ونداف  
فيما بؤسها من هجرة ومطاف

بأني قد مُلِّكْتُ شرلحاف

غنياً وسعدي في الحياة موافي

سُرقت لحافي جاهداً وشغافي

فإنني صديق في الحياة موافي

ومن أطف نماذج الفكاهة في شعر عبد الحميد الديب ، تلك المقطوعات التي هجا فيها بعض أصدقائه هجاءً مقذعاً استلهم فيه قول جرير: ( إذا هجوتم فأضحكوا ) ، فها هو ذا يصور لنا صديقه اللود الشاعر الصحفي كامل الشناوي ببدانته المعروفة وهو يجلس جلسة صفاء ويجانبه عادة حسناء يحاول تقديلهما فتذفر منه لأنها أكرهت على مجالسته طمعاً في ماله أو في كأس تنالها في صحبته فيقول الديب واصفاً كامل الشناوي :

يصول على زجاج عبقري

وبين يديه واحدة العذارى

تغمغم إذ يقبلها استيـاءً

يكاد ببطنه الكبرى يلالى

شرى يدها بكأس أو بمال

لأن الفيل يعبت بالغزال

ويشجر خلاف بين شاعرنا وبين شيخ معمم أمام ( بار اللواء ) ينتهي  
بمعركة حامية بينهما يشتبكان فيها بالأيدي ثم تتمخض هذه المعركة عن قصيدة  
يهجو فيها شاعرنا ذلك الشيخ ويتخذ من العمة ( = العمامة ) التي يرتديها الشيوخ  
وسيلة للغمز في ذمة صاحبه فهو يتهمه بأنه فاسد الذمة ، يتخذ هذه العمامة مظهراً  
من مظاهر النفاق والنصب على الأبرياء بالرياء فهو يتكسب منها بالغش والزور  
وقد تبدلت بها حاله من الفقر المدقع إلى الغنى الفاحش :

عمة تحتها ضلال ولؤم

نسجت من سفاهة وفسوق

أطعمت ربها زجاجاً حنيذاً

وهي عش الخنا وبيت الداء

وعلى الخسة انطوت والرياء

وسقته " الكونياك " بعد الماء

ويدافع صديقه الشاعران كامل الشناوي وعلى محمود طه عن ذلك الشيخ  
بقصيدة يشتركان في تأليفها وينشرانها فيرد الديب عليهما ويمعق في وصف ذلك  
الشيخ وصفاً تهكمياً بليغاً فيقول :

خليليّ لم أظلم وإن بت ظافراً

ألم تريا ذا الشيخ في طول نخلة؟

ألا لا تلوماني على صفع وجهه  
فقدماً رأيناه وللعين أختها

وقد تضعف الأضغان من كان قادراً  
عريض القفا فينان كالفرع ناضراً  
فذلك وجهٌ يقبل الصفع صاعراً  
فأمسى مكان العين بالضرب شاعراً

على أن شاعرنا إذا هجا لم يكن في جميع الأحوال مضحكاً بل كان هجاءه يصل أحياناً إلى حد من الغلظة كبير، فقد حدث أن زار أديباً كان وزيراً معروفاً في الأربعينيات، وكان مشهوراً بعطفه على الأدباء والشعراء، فلم يتمكن من مقابلته بسبب صاحب له غليظ القلب ساءه أن يدخل رجل زري الهيئة مثل الديب على سيده الوزير فاشتد ذلك على الديب فقال يهجو الوزير وخادمه في شعر لخفة الظل فيه :

قصدت إلى بابك الموصل  
غلام يمثل حظي لديك  
كأني حين طلبت الندي  
لقد عشت يا رب حتى رأيد  
فخذني إليك وأنت الكريد  
ولست أرى البؤس عاراً إذا

فطوردتُ بالخادم الأسود  
وقلبك في البيت والمعبد  
إليك طلبت يد المعتدي  
ت من الناس أقسى من الجامد  
م فقد ضقت بالزمن الأكد  
رأيت إِبائي به مُسْعدي

ومن المواقف الفكاهة الطريفة في حياة شاعرنا ذلك الموقف الذي صار فيه شاعرنا موضع سخريّة ماجنة من صديقه الفنان سيد العقاد الذي وعده بسهرة ممتعة فسار معه في الطريق وفجأة تعلق العقاد بالترام بجواره فانطلق به ، وترك شاعرنا مذهولاً فتلقفه صديقان له ، فحكى لهما ما صنع به سيد العقاد فأخذه ليطعماه ويسقيه ، فلما وصلا إلى حجرة أحدهما ادعى الإفلاس وجمع له زجاجات خمر فارغة ليرهنها عند ( كركور ) وهو صاحب خمارة كان معروفاً لهم ، ويشترى بالرهن طعاماً وشراباً ، ودسّ صديقه بين تلك الزجاجات زجاجة زيت خروع فارغة وقد اكتشف ( كركور ) الخدعة ومع ذلك فقد أعطى الديب ما أراد من مال فقال شاعرنا يذكر هذا الموقف :

وبعنا زجاجات الطّلا بعد شربها  
فيوماً شربناها بعين وفضة  
وشمنا من " العقاد " أنذل باخلٍ

جزى الله " كركوراً " معيناً فإنه  
وبدل ماء الخلد حزني بشاشة

لنظفر من أثمانها بكؤوس  
ويوماً شربناها ببيع نفوس  
يضمن لدى البلوى بنفل فلوس  
أضاء ببشر الخمرليل عبوسي  
ففارقني كربي وشدة بوسى

وهكذا عاش الديب بائساً ، ومات بائساً ، ولم يرحم أصدقائه هذا البؤس بل  
كانوا يتخذونه مادة للسخرية ، ووسيلة للاستهزاء ، وكان شاعرنا يبادلهم احتقاراً  
باحترقار ويرد على بذاءاتهم ببذاءات أشد لا نستطيع ذكر نماذج لها في هذا المقال ، .